هتف عتبة بن عبيد الله، وقد مسَّ حديثُ الشيخ شغاف قلبه: لبَّيك أبا أيوب.
فضجَّ المجلس وراءه بالتلبية …

ذلك شأن القاص أبي داود، وذلك شأن الناس معه؛ ما يزال يتنقل بين الأمصار، يدعو إلى الجماعة،[٢٥] أو يدعو إلى جهاد أهل الشرك، فيستجيب له من يستجيب، ويُلبِّي من يلبِّي.

ولكن الفتنة التي نشبت بين أهل القرآن منذ سنين لم تُطفأ بعد؛ فما يزال في كل بلد داعٍ يدعو لنفسه، ويؤازره من المسلمين طائفة، فأمير المؤمنين في الحجاز وما والاها عبد الله بن الزبير، وأمير المؤمنين في الشام عبد الملك بن مروان، وما يزال في الجزيرة والكوفة، وما وراءها من أرض المشرق داعٍ أو دعاة، يهتفون باسم أمير من بني علي بن أبي طالب،[٢٦] وفي دمشق نفسها لم يزل واحد أو أكثر من السفيانية[٢٧] أو غيرهم من فروع بني أمية، ينفس[٢٨] على بني مروان أنْ تكون الخلافة فيهم … وعبد الملك يحاول أنْ يوطِّيء لنفسه بين هذه الزعازع،[٢٩] فما ينفكُّ متنقِّلًا على رأس جيشه من مصر إلى مصر،[٣٠] مكافحًا صابرًا قد استحلَّ سفك الدم في سبيل توطيد العرش، وتوطئة الأكناف لبني مروان، وكان قبل أنْ يليها شيخًا من أهل الرأي[٣١] لا يكاد يفارق مسجد رسول الله في المدينة، أو يدعُ المصحف!

وحلَّت سنة ٧٠ من الهجرة، وما تزال الفتنة ناشبة، وكان الروم قد انحسروا عن أرض المشرِق، فليس لهم في الشام باع ولا ذراع، ولكنهم منذ جَلَوا عن أرض المشرق، لم تزل

[٢٥] وحدة الرأي وتأييد الخليفة القائم، وانظر التمهيد.

[٢٦] كان فريق من المسلين — ولعله الكثرة — يرى عليًّا وبنيه أحق بالخلافة من معاوية وبني أمية.

[٢٧] السفيانية: أولاد أبي سفيان، وكانت الخلافة فيهم منذ معاوية، حتى وليها مروان بن الحكم، فتسلسلت في بنيه إلى آخر الدولة.

[٢٨] يرى أنْ ينافس بني مروان في الخلافة.

[٢٩] الزعازع: الأعاصير.

[٣٠] من بلد إلى بلد، والمصر هو البلد المتحضر.

[٣١] أهل الرأي: هم الفقهاء وأصحاب الفتوى، وكان عبد الملك منهم قبل أنْ يرث عرش أبيه.